

التلقي الأولي لرواية "ميرسو...تحقيق مضاد" لـ كمال داود

The initial reception of the novel "Meursault...against investigation" of Kamel DAOUD

أيت عيسى عمار*

Ait Aissa Ammar*

كلية الآداب واللغات، جامعة بجاية، الجزائر. ammaraitaissa@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/05/22؛ تاريخ القبول: 2019/05/26

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تتبع القراءات الأولى أو بالأحرى التي قوبلت بها رواية "ميرسو...تحقيق مضاد" للروائي الجزائري كمال داود في الساحة الجزائرية، وذلك بتناول القراءات السريعة التي صدرت في حق الرواية بالتحليل، وإظهار مرتكزاتها، كما تسعى هذه الدراسة أيضا، إلى الوصول إلى الأسئلة التي طرحتها هذه القراءات على الرواية، فكانت الرواية نفسها بمثابة الإجابة على هذه الأسئلة بتنوعها أو حسب منطقها. معتمدين في ذلك على ما قاله يابوس في رسالته حول منطق السؤال والجواب، وكذلك مقولته حول أفق الانتظار.

كلمات مفتاحية: التلقي، القراءات، منطق السؤال والجواب، أفق الانتظار.

Résumé :

Cette étude vise à suivre les premières lectures, qui ont été attendues par le roman « Meursault...contre-enquête », publié par le romancier Algérien Kamel DAOUD, sur la scène Algérienne, et sa en étudiant les lectures rapides qui ont été publiées. et cette étude cherche aussi à arriver aux questions posées par les lectures ; dont les auxquelles le roman était une réponse pour elles.

* المؤلف المرسل: أيت عيسى عمار، البريد الإلكتروني: ammaraitaissa@gmail.com

* Corresponding author: Ait Aissa Ammar, e-mail: ammaraitaissa@gmail.com

S'appuyant là-dessus sur ce que H.R.JAUSS a dit ; la logique de la question et la réponse, et l'horizon d'attend.

Abstract:

This study works on tracking the first Readings, which was a reactions of a novel "Meursult...against investigation" of Algerian novelist Kamel DAOUD, in the Algerian arena; by analyzing these readings.

This study also seeks to show the questions asked by these reading to the novel.

All this is based on what H R JAUSS called; the logic of the question and answer, and the horizon of expectation.

1. المقدمة:

ظل القارئ العنصر المنسي، لمدة طويلة من الزمن، في الدراسات النقدية، حيث كانت الأنظار في المرحلة الأولى من الدراسات النقدية موجهة إلى المؤلف والظروف الخارجية المحيطة بالنص، ثم إلى النص نفسه في المرحلة الثانية، في حين بقي العنصر الثالث (القارئ)، بدون عناية إلى حين ظهور نظرية التلقي.

في المرحلة الأولى من الدراسات النقدية، كان التركيز على الظروف الخارجية أو السياقية التي ساهمت في تكوين النص، انطلاقاً من مؤلف النص، وصولاً إلى المؤثرات التاريخية والاجتماعية المحيطة بالنص نفسه، فراح النقاد يبحثون خارج النص لتفسير الظاهرة الأدبية، و "يتمثل هذا الاتجاه عند من وصلوا الآثار الأدبية بسياقاتها التاريخية أو الاجتماعية أو النفسية"⁽¹⁾.

في حين سجل نقاد المرحلة الثانية انقلاباً جريئاً على ما كان سائداً في المرحلة الأولى، حيث شكّلوا قطيعة، بإعلانهم لنهاية مرحلة نقدية امتدت لفترة زمنية لا بأس بها، فوضعوا حداً للدراسات السياقية، بل وكانت ردة فعل على طغيانها واستفحالها، وذلك

(1): عبد الناصر حسن محمد: نظرية التواصل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط1، القاهرة، مصر، 1999، ص07.

بالتأكيد على النص نفسه، باعتباره "كيانا مستقلا في ذاته، لا يمت بصلة إلى شيء آخر"⁽¹⁾ يقع خارجه، فتوالت المناهج والنظريات التي احتفت بهذا المنظور، ورغم الاختلافات الموجودة فيما بينها، إلا أنها كانت تشترك في كونها ذات منحنى بنيوي، تخضع لمبدأ أساسي وهو أن الدراسة يجب أن تتمركز حول النص نفسه.

يمكن لمصطلح "النسق" أن يعبر حقيقة عن هذه المناهج والنظريات التي تندرج تحت هذا التوجه الجديد الذي ثار على الدراسات السياقية، بحيث أنها، "جاءت لتحديد من المبالغة في التركيز على المؤثرات الخارجية ولتعطي النص الأدبي في ذاته ما يستحق من الاهتمام"⁽²⁾، وذلك بوضع النص في بؤرة الاهتمام، كونه - حسب أصحاب هذا الاتجاه - جوهر العملية الإبداعية، ولا شك أن في مقولة "موت المؤلف"، وما يحمل الدلالة الكافية لفهم هذا التوجه في الدراسات النقدية.

لا يمكن أن ننكر النتائج التي حققها هذه المناهج والنظريات، سواء تلك التي اهتمت بما هو خارج النص، أو تلك التي أطلقنا عليها اسم المناهج النسقية، إلا أن السؤال الذي لم تستطع الإجابة عنه، أو بالأحرى المشكل الذي ظل قائما مع هذه المناهج والنظريات النقدية هو، فشلها في الوصول إلى، "السّر الذي يجعل الأثر الأدبي مستمرا وحيّا حتى بعد أن تفتى الظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت إليه، بل لم تستطع تلك النظريات أن تجد أسبابا مقنعة للتمييز بين النص الأدبي وغيره من حيث القيمة. وظلت التساؤلات ملحة، وظل البحث الأدبي في توتراته وتساؤلاته اللانهائية حائرا"⁽³⁾. انطلاقا من هذا النقص، ظهر توجه جديد يهتم بالعنصر الثالث من العملية النقدية، ألا وهو "القارئ"، على أساس أن غياب القارئ الذي يؤدي وظيفة القراءة، يعني غياب النص الأدبي مهما كان مستوى جودته، فلا جدوى من وجود النص في ظل غياب القارئ الذي يحقق وجوده. فالقراءة إذن، هي التي تحقق النص، بل هي التي تحييه وتعطيه قيمته، فأصبحت بذلك قيمة العمل الأدبي - مع هذا التوجه الجديد - مرتبطة بمعيّار جديد لم تنتبه إليه الدراسات السالفة الذكر، ألا وهو "وقع هذا العمل

(1): المرجع نفسه، ص21.

(2): المرجع نفسه، ص19.

(3): المرجع نفسه، ص63.

وتلقيه وتأثيره وقيّمته التي تعترف بها الأجيال القادمة"⁽¹⁾.

مثّلت مدرسة كونستانس الألمانية هذا التوجه، عبر قطبيها الرئيسيين، هانس روبرت ياكوب وفولفغانغ أيزر، اللذان يشتركان في اهتمامهما بالعلاقة التي تنشأ بين النص والقارئ، ويختلفان في مركزاتهما وأليتهما الإجرائية والأهداف المسطرة لدى كل واحد منهما، والتي يحددها لدراسة النص الأدبي.

أما ياكوب فلقد خصص "اهتمامه في شؤون الاستقبال المنبثقة عن العلاقة بين الأدب والتاريخ"⁽²⁾، من خلال دعوته الصريحة إلى بناء تاريخ أدبي جديد على أساس التلقيات التي حظي بها النص الأدبي. فكان عنصر التاريخ أساس في فكر ياكوب، لكن تاريخية العمل الفني التي يقصدها ياكوب هنا، ليس تلك التي "تكمّن في وظيفته التصويرية أو التعبيرية، بل كذلك بالضرورة في الأثر الذي يحدثه"⁽³⁾، في حين كان أيزر قد توجه بالاهتمام إلى عملية القراءة في حدّ ذاتها، فهو "كباحث في الأدب الإنجليزي جاء من التفسيرية الموجهة للنقد الجديد ونظرية السرد"⁽⁴⁾، فاهتم ببناء معنى النص الأدبي من قبل القارئ، وذلك بتركيزه على العمليات الذهنية التي تحدث في ذهن القارئ.

وعلى هذا الأساس سنحاول تتبع القراءات وردود الأفعال الأولية التي صدرت في حق رواية كمال داود "ميرسو...تحقيق مضاد"، وذلك بالاعتماد على مقارنة تستند على مقولات جمالية التلقي، فكيف تلقى القارئ الجزائري رواية "ميرسو... تحقيق مضاد"؟ وما طبيعة العلاقة الحوارية التي نشأت بين هذا القارئ والرواية؟

2. القراءات أو ردود الأفعال الأولية حول رواية "ميرسو...تحقيق مضاد":

لقد حصرنا بحثنا، بالتركيز على القراءات الأولية التي تبعت ظهور الرواية مباشرة، ولقد حصرناها في ثلاثة أنواع، وسنعمل على تحليلها واستنباط الأسئلة التي طرحتها هذه

(1): هانس روبرت ياكوب: جمالية التلقي (من أجل تأويل جديد للنص الأدبي)، تقديم وترجمة رشيد بن حدو، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، لبنان، 2016، ص26.

(2): روبرت سي هولب: نظرية الاستقبال، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سورية، 2004، ص101.

(3): المرجع السابق، ص43.

(4): روبرت سي هولب، نظرية الاستقبال، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، ص144.

القراءات التي نشأت حول الرواية، وأجابت عنها الرواية انطلاقاً من السؤال المطروح عليها⁽¹⁾، وذلك ما سيسمح لنا باكتشاف أفق انتظار القراء أو المتلقين الذين صدرت عنهم هذه القراءات.

2-1. قراءة على أساس أيديولوجي:

.قراءة الدكتور عثمان سعدي:

بعد صدور رواية كمال داود "ميرسو...تحقيق مضاد"، توالى ردود أفعال القراء، ولقد حظي هذه الرواية باهتمام خاص عند الدكتور عثمان سعدي، نظراً لما صدر عنه من مقالات تتناول الرواية من قريب أو من بعيد، وذلك لأنها في بعض الأحيان تمت بصلة مباشرة إلى الرواية وصاحبها، وفي البعض الآخر كانت ردود أفعال موجبة للرد على مقالات أخرى، لكنها في الوقت نفسه مرتبطة بالموضوع، كما يظهر ذلك مثلاً في مقاله المعنون: "ردا على واسيني الأعرج: كمال داود معادي للإسلام والعروبة والجزائر وفلسطين"، المنشور في مجلة القدس العربي.

الملاحظة الأولى التي يمكن أن نتفطن إليها، هي أن مقالات هذا الأخير لم تطل الرواية كعمل أدبي بقدر ما تعرضت لشخصية صاحبها كمال داود، وذلك بتتبع مواقفه وآرائه وأفكاره التي نشرت عبر الصحافة، ومنه يمكننا القول أننا في هذه الحالة أمام قراءة شاملة لا ترتبط فقط بالرواية في حد ذاتها.

كانت رواية "ميرسو...تحقيق مضاد"، بمثابة المنبه الذي أيقض ردود أفعال كهذه، تخوض في شخصية الروائي وأيديولوجيته، أكثر مما تبحث في الرواية بوصفها عملاً فنياً، ففي مقاله المعنون "كمال داود من أشباه الكتاب الجزائريين، أين الفن الأدبي من كل هذا؟"، يستهل الدكتور سعدي مقاله بالقول، "عرف كمال داود بأنه مناهض للغة العربية وعدو لكل ما هو عربي، يمقت كلمة عربي ويضعها دائماً في كتاباته بين مزدوجتين"⁽²⁾، ففي وصفه هذا، توجه مباشرة إلى الكاتب نفسه، بالحديث عن موقفه

(1): للمزيد حول قضية "منطق السؤال والجواب"، ينظر: الرسالة الرابعة لياوس في كتابه، جمالية التلقي (من أجل تأويل جديد للنص الأدبي)، ص 65.

تاريخ الزيارة: 2017/08/13. http://www.raialyoum.com/?p=1903541 : (2)

تجاه اللغة العربية وما هو عربي بصفة عامة، فهو في هذا الموقف بصدد إصدار حكم عام على الروائي.

ويواصل في إصدار الأحكام، لكن هذه المرة نراه يخصص الرواية بحكم قبيح، وذلك لما يقول "في أكتوبر 2013 نشر روايته التي مرت بدون اهتمام (ميرسو...تحقيق مضاد)، هذه الرواية ليست سوى محاكمة ضد الجزائريين وثقافتهم وضد الإسلام، التي تعتبر عنده عناصر حصريّة"⁽¹⁾، لا شك أن العبارة الأولى التي نعتت بها الرواية "مرت بدون اهتمام"، تنم عن حكم يخرج من دائرة الاهتمام بالرواية على أنها إبداع أدبي له مميزاته، إلى الاهتمام بما هو خارج عنها، أي بمدى نجاحها في استقطاب الأنظار، كما تظهر باقي العبارة، وكأنها تحصر في الغرض الذي يهدف إليه الكاتب وهو مناهضة الجزائريين وثقافتهم والإسلام، مما يظهر لنا أن الرواية هنا لم تقرأ على أساس أنها عمل فني، بل على أنها وثيقة أيديولوجية، تصدر منها أيديولوجية صاحبها وآراؤه، دون الاكتراث بالمكونات الأخرى التي تحتويها.

وموقف الدكتور سعدي هذا يدفعنا إلى التعرّيج على موضوع الإيديولوجية في الأدب عامة، وبصفة خاصة الإيديولوجية في الرواية، ويجعلنا نتساءل، كيف توصلت هذه القراءة إلى أن أيديولوجية الروائي تقوم على مناهضة ثقافة الجزائريين؟ مما لا شك فيه أن الرواية تعبر بالضرورة عن صراع إيديولوجي، بحيث أن "الأيديولوجيات تقتحم النص الروائي باعتبارها مكوناته الأولية، لأنه لا يمكن بناء نص روائي إلا من خلال هذه المادة الأولية"⁽²⁾، لكن أيديولوجية الروائي ليست بالضرورة تلك التي تظهر لدى إحدى الشخصيات، "لأن الكاتب لا يضمن بالضرورة إيديولوجيته ضمن إحدى الأيديولوجيات المعروضة في النص. فقد تبقى إيديولوجيته خفية أي تتحرك بسرية بين الإيديولوجيات المعروضة"⁽³⁾، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن إمكانية أن تكون الأيديولوجية التي يمثلها البطل ممثلاً في شخصية هارون في رواية "ميرسو...تحقيق

(1) : المصدر نفسه ، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

(2) : حميد لحمداني: النقد الروائي والأيديولوجيا (من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي).

المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990. ص26.

(3) : المرجع نفسه، ص27.

مضاد" هي نفسها أيديولوجية الكاتب؟ فنقول، حتى وإن تصادف أن يكون الكاتب قد ضمّن أو نسب بعض أفكاره إلى شخصية البطل هارون في الرواية، إلا أن الرواية كأيديولوجية لم تكن تحمل كل هذه الأفكار التي نسبت إلى الكاتب، وهذا ما يدفعنا إلى القول - مرة ثانية - أن هذه القراءة، قد استمدت مادتها من خارج الرواية، وذلك بتتبع مواقف الروائع في الصحافة، دون أن ينفي هذا أن الرواية في حد ذاتها تعبر عن أيديولوجية صاحبها أو ما يطلق عليه "الرواية كأيديولوجيا" بتعبير حميد لحمداني، وهو الذي نبه إلى الخطأ الذي يقع فيه النقاد العرب، حين قال، "وكثيرا ما أخطأ النقاد العرب مثلا في التعامل مع الإيديولوجيات المكونة لبنية الرواية فتعاملوا معها أو على الأصح مع بعضها على أنها تعبر بشكل مباشر عن صوت الكاتب، مع أن كتاب الرواية غالبا ما يقومون بعرض هذه الأيديولوجيات والمواجهة بينها من أجل أن يقولوا شيئا آخر ربما يكون مخالفا لمجموع الإيديولوجيات نفسها"⁽¹⁾ الواردة في الرواية، والتي ينتج على أساسها الصراع الأيديولوجي.

كما تذهب هذه القراءة بعيدا عن الرواية، عندما تفسّر الثناء الذي لقيته الرواية من جانب "بيير أسولين" أحد أعضاء لجنة تحكيم جائزة غونكور GONCOURT للرواية، بحيث يعلل الدكتور سعدي الثناء الذي نالته الرواية لدى هذه الشخصية بالحديث عن بيير أسولين نفسه: "بيير أسولين مناضل صهيوني، ينشط بقوة في نشاط مجلس تمثيل المؤسسات اليهودية بفرنسا CRIF، إنه مشارك في تحرير أسبوعية الوقائع اليهودية"⁽²⁾، يظهر من خلال هذا المقطع أن الرواية - حسب الدكتور سعدي - لم تنل هذا الثناء لما فيها من قيمة أدبية، بل هذا الثناء عبارة عن موقف غير موضوعي، واستند في تبرير ذلك بالبحث في طبيعة نشاط بيير أسولين وسيرته كونه صاحب الثناء الذي صدر في حق الرواية، ويدرج أيضا زوجته في الموضوع فيقول، "زوجته أنجلا يغداروف عضو نشط في المنظمة العالمية للنساء الصهيونيات"⁽³⁾، وكل هذا من أجل القول، إن إشادة هذا العضو بالرواية كانت لأسباب ذاتية لا موضوعية، فهو يلمح إلى

(1) : المرجع نفسه، ص.33.

(2) : تاريخ الزيارة: 2017/08/13. <http://www.raialyoum.com/?p=1903541>

(3) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

أن الثناء الذي نالته الرواية مشكوك في أمره، ما دام صاحبه مرتبط بسيرة المشار إليها.

أضف إلى هذا كله، فهذه القراءة ترجع كل ما نالته الرواية من إشادة في الساحة الفكرية والنقدية الغربية، إلى المواقف التي يتبناها كمال داود تجاه بعض القضايا المتعلقة بصفة عامة بالهوية، وهذا ما يتبين لنا من هذا المقطع، "وهكذا تصاعد بفرنسا الاهتمام برواية كمال داود (ميرسو...تحقيق مضاد)...وتلحق صحف أخرى بالإشادة، فتوضع الرواية في قائمة الجوائز الأدبية، غونكور، جائزة رونودو، وتحصل الرواية على جائزة فرونسوا موريك، ثم جائزة القارات الخمس للفرانكفونية"⁽¹⁾، فحسب هذه القراءة، فإن كل هذه الترشيحات والجوائز الأدبية التي نالها الرواية، تثير الشك في أحقيتها، فكل هذا الرواج أتى لتدعيم تصريحات كمال داود، باعتبارها تصب في خانة معاداة الإسلام واللغة العربية والقضية الفلسطينية، حسب رأي الدكتور سعدي.

أخيرا، عندما يأتي الدور للحديث عن الرواية في حد ذاتها مفصولة عن مواقف داود التي يعرضها في وسائل الإعلام، لكونه صحفيا قبل أن يكون روائيا، يقول الدكتور سعدي، "أما عن القيمة الأدبية لرواية كمال داود، فهي في رأيي رواية تافهة، كتبها تحت إبط ألبير كامو الذي يقول عنه إنه جزائري، وهو ليس كذلك هو مستعمر مولود في الجزائر، عندما قامت الثورة الجزائرية تنكّر لها ووقف مع الجزائر الفرنسية"⁽²⁾، إن وصف الرواية بالتافهة دون الاستناد إلى ما يؤكد هذا الرأي، يبين أنه حكم قبيح في حق الرواية ما دام لم يصدر عن تفحص وتحليل للرواية، أضف إلى هذا فإن سعدي في هذا المقطع يتجاوز مرة أخرى الرواية، فيتعرض لصاحب رواية "الغريب" ألبار كامو، التي تقوم رواية كمال داود على الانطلاق منها أصلا، حيث نعت ألبير كامو بصفة المستعمر والمعادي للثورة الجزائرية.

يمكن القول في الأخير، إن هذه القراءة لم تتعرض للرواية بقدر ما تعرضت لصاحب الرواية ولأفكاره ومعتقداته، والسياق العام الذي تبع صدور الرواية، فتكون بذلك قد طرحت على الرواية سؤالا يبحث عن أيديولوجية صاحبها لا غير، وحاولت الإجابة عنه باستنطاق مسيرة كمال داود، وكل تصريحاته وأعماله.

(1) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

(2) : تاريخ الزيارة: 2017/08/13. www.alquds.co.uk/?p=269507

- قراءة حبيب راشدين:

يبدوا أن موقف حبيب راشدين، لا يختلف كثيرا عن موقف الدكتور عثمان سعدي، حيث كان مقاله المنشور في موقع الشروق أونلاين يبين موقفه هو الآخر تجاه رواية "ميرسو...تحقيق مضاد" ومن صاحبها كمال داود نفسه، فلم يحترم هو كذلك الرواية كجنس أدبي له خصائصها التي تميزها عن باقي النصوص الصحفية، الدينية، العلمية...

كان عنوان المقال كافيا لتوقع ما سيحتويه المقال نفسه، حيث جاء تحت عنوان "مزامير داود الشيطانية"، حيث تعبر لفظة "الشيطانية" إلى السوء الذي يروج له داود، مساويا في ذلك بين ما يدعوا إليه داود وأفعال الشيطان الموسوسة لبني البشر، ثم راحت هذه القراءة - ومنذ البداية - تسهب في الحديث في الروائي متناسية الرواية، انطلاقا بإظهار صاحب المقال موقفه تجاه داود، "لا أجد في نفسي ما يبرر الوقوف مع الزميل كمال داود - وقد أهدر دمه أحد المشايخ بتهمة الردة - بحجة حرية الرأي"⁽¹⁾، ثم يستمر في تبرير موقفه هذا الذي تبناه تجاه داود، "لأن داود قد أخطأ في الوطن، والشعب، والملة، واللغة، والتاريخ"⁽²⁾، فنلاحظ هنا أنه هو بصدد الحكم على داود، والقول بأنه أخطأ على مستويات عدة ابتداء بالوطن ووصولاً إلى التاريخ ومرورا بالشعب والملة والتاريخ، لكن دون التأكيد الإشارة إلى مواطن الخطأ، مما يعني أنه حكم مباشر وعام وشمولي غير مبرر بالأدلة والبراهين التي تثبت هذا الخطأ الذي نسبته إلى داود.

تبتعد هذه القراءة أكثر عن الرواية، عندما تعرض الأسباب التي دفعت كمال داود إلى أن يخوض في المواضيع التي تناولها في روايته، وذلك بتحديد غرضه من توجهه ومحاولة تبرير أفكاره، "...رواية أعدت سلفا لشراء شهادة حسن السلوك لدى لجنة (غونكور)، يريد أن تجعل الجبال تؤوب معه والطير، وتلين له قلوب بني إسرائيل"⁽³⁾، فلم تصدر مواضيع الرواية وما تحمله من أفكار وآراء - حسب هذه القراءة - عن حسن نية، بل كانت تسعى لتحقيق هدف معين، وهو التأثير في لجنة تحكيم جائزة

تاريخ الزيارة: 2017/08/13 : www.echoroukonline.com/ara/articles/226755.html : (1)

(2) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

(3) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

غونكور للرواية والأقرب من بني إسرائيل، فلم تكن نية داود بريئة حسب هذا المقطع في تناول مواضيع تتعلق بالهوية بصفة عامة، بل كانت تسعى لتحقيق أهداف خفية.

إن هذه القراءة في الوقت الذي تهم الروائي، بالقول أن مواضيع روايته لم تصدر عن حسن نية، بل من أجل التأثير على لجنة غونكور، تهم بصيغة غير مباشرة لجنة تحكيم جائزة غونكور للرواية التي تحتضنها فرنسا كل عام، بالقول أن هذه اللجنة لا تختار الأعمال الأدبية على أساس الاستحقاق بل على أساس آخر، وهذه النتيجة، أتت من خلال القياس على ما علقته به هذه القراءة على الغرض الخفي لداود.

تواصل هذه القراءة في التحقيق مع الروائي، وهذه المرة بوصف الفكر الذي يصدر من كمال داود، وتنبيهه في الوقت نفسه بتجاوز حدود حرية التعبير، "فإني لا أملك سوى التعامل مع هذا الفجور الفكري بالأدوات التي يمجدها ابن داود وأنصاره، وأكتفي بإحالاته إلى القوانين الوضعية المنظمة لحرية التعبير..."⁽¹⁾، إن ما يروج له كمال داود - حسب هذه القراءة - عبارة عن فجور فكري لا غير، وهو تعدى الخطوط الحمراء لحرية التعبير، ودعوة صريحة لكمال داود باطلاع على المبادئ التي تحكم حرية التعبير، التي يجهلها أو ربما يعرفها لكنه اختار تجاوزها.

وأخيرا تختتم هذه القراءة بالتركيز على الرواية هذه المرة، واتهامها بأنها تعرضت لكتاب الله المقدس بالإساءة، "...روايته ميسو...تحقيق مضاد، وقد تعرض فيها بجهالة وصلافة لكتاب مقدس، يؤمن به ثلث سكان الأرض من العرب والعجم"⁽²⁾، ويطلب من الكاتب الاعتذار على ما بدر منه من إساءة عبر روايته، "يحسن بك يا ابن داود، وأنت حارس بوابة بلا أجر لمستعمر قد دحر، وحضارة غربية تهاوت بمن خلقه الله في أحسن تقويم لترده أسفل سافلين، يحسن بك أن تبادر فوراً إلى الاعتذار للمليار مسلم، وقد تطاولت بجهالة على رب العرش العظيم بما لم يتجرأ عليه الحاقد فولتير والمغربي سلمان رشدي"⁽³⁾، فهنا اتهام واضح وصريح للروائي بخدمة الاستعمار الذي دحر، ومقارنة أفكاره التي تعتبر إساءة إلى الله وكتابه - حسب هذه القراءة - بكل من أفكار فولتر

(1) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة، 2017/08/13.

(2) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة، 2017/08/13.

(3) : المصدر نفسه، تاريخ الزيارة، 2017/08/13.

الذي وصف بالحقود وسلمان رشدي الذي وصف بالمغرر به.

إن ردة الفعل هذه، أو هذه القراءة الثانية، لا تختلف كثيرا، كما سبق وأن أشرنا، عن القراءة التي الأولى التي قدمها الدكتور عثمان سعدي، في تركيزها على الروائي أكثر من الرواية، وعدم الاهتمام بالرواية على أنها شكل أدبي، فطرحته هي الأخرى أسئلة، تبحث فيها عن أيديولوجية الروائي لا غير، وذلك من أجل محاربة الفكر الذي يدعوا إليه كمال داود - حسب القراءة - المسيء إلى الهوية الإسلامية والوطنية، وهذا ما جعلنا نستنتج أن أصحاب هذا الصنف من القراءة، ينظرون إلى الأدب على أنه يعبر عن أيديولوجيا صاحبه لا غير، متناسين الجوانب الأخرى، وذلك دون أن ننكر وجود الأيديولوجيا في الأدب.

2-2. قراءة على أساس ديني:

إذا كانت القراءة السابقة التي تحتوي على القراءتين السالفتين، قد مستا الروائي أكثر مما ركزنا على الرواية في حد ذاتها، ففي الوقت الذي راحت فيه القراءة الأولى تهتم الروائي كمال داود بمهاجمة ثوابت الأمة سواء في الرواية أو في بقية الآثار التي تصدر عن الروائي، اعتبرت القراءة الثانية الروائي متجاوز لحدود حرية التعبير، وطالبت بالاعتذار إلى من أساء إليهم، فإن هذه القراءة الثالثة، أو رد فعل هذه المرة، فإنها قد أصدرت حكما جزافيا في حق الروائي نفسه دون الالتفات إلى الرواية، حيث وصف الروائي، "بالزنديق والمتصهين المجرم الذي يسب الله تعالى ويتناول على القرآن ويحارب الإسلام واللغة العربية ويعادي أبناء أهل الإسلام"⁽¹⁾، لتبلغ هذه الاتهامات أوجها عندما يدعوا صاحب هذه القراءة في "فتواه إلى إزهاق روح الكاتب بإهدار دمه"⁽²⁾، لكن كل هذه الأحكام لم تستند إلى مقطع واحد من الرواية، لتبين لنا صحة الأوصاف التي نعت بها الروائي، مما يدل على أن هذه الأحكام الصادرة عن هذه القراءة مباشرة، لا تكتفي فقط بأنها تنأى عن الرواية، بل تنكر طبيعة النص الروائي.

إن ردة الفعل هذه التي تستند إلى الدين لتكفير الروائي والدعوة على إهدار دمه،

تاريخ الزيارة: <http://www.alarabiya.net/ar/north-africa/Algeria/2014/12/17> : (1)

.2017/08/13

(2) : المصدر نفسه ، تاريخ الزيارة: 2017/08/13.

ربما تذكرنا بموقف مؤسسة الأزهر تجاه الروائي المصري نجيب محفوظ إثر إصداره لروايته "أولاد حارتنا"، حيث تشترك هذه القراءة مع تلك التي قدمها الأزهر، في اعتبار الرواية "وثيقة دينية"⁽¹⁾، في الوقت الذي تعتبر الرواية جنسا أدبيا له ما يميزه ويجعل منه متفردا عن بقية النصوص، وبتعبير آخر فالرواية، "نص تخييلي لا يجوز اجتزاؤه والتعسف عليه، والنظر إليه من الجانب النفعي أو إهدار قيمته وخصوصيته"⁽²⁾، ولذلك فإن السؤال الذي طرحته هذه القراءة لم يتجاوز ذلك الاستفسار عن مدى ملائمة الرواية مع التعاليم الدينية والأخلاقية التي تمجدها وتدعوا إليها الشريعة الإسلامية، ما يعنى أن أفق انتظار صاحبها قد كسر، ما دامت الرواية لم تحقق تطلعاته، فأفق انتظار هذا القارئ مبني على أساس أن الأدب نص عادي لا يختلف عن بقية النصوص الأخرى.

نلاحظ، بعد هاتين القراءتين التي عرضنا لها، والتي استقبلت الرواية مبكرا، رغم تفاوتها من حيث التركيز على الرواية، إلا أنهما تشتركان في بعدهما عن الرواية في حد ذاتها، ولم تحترم كذلك الخصائص الأساسية للعمل الروائي كجنس أدبي، والذي يعتبر فيه الخيال أول عنصر من عناصره، وبالتالي طرحت أسئلة أجابت عليها الرواية بقدر مستوى السؤال المطروح، ولم تعتبر الرواية، قبل كل شيء رسالة جمالية، وهذا ما يجعلنا ننبه في هذا المقام إلى خطورة القراءات التي تتعامل مع النص الأدبي بصفة عامة دون الاكتراث بما يحمله من سمات تميزه عن باقي النصوص، وربما أيضا طبيعة الوعي الذي تشكله ردود أفعال كهذه.

2-3. قراءة في جمالية الرواية:

لم تكن هذه القراءة، المتمثلة في المقالة الموسومة "كمال داود قارئاً لألبيير كامو"، مثل سابقتها، بحيث كان علينا أن ننتظر فترة لا بأس بها كي تخرج إلى الوجود، وربما جعلتنا هذه الملاحظة نقيم دليلا آخر على تسرع القراءات السابقة في الحكم على الرواية دون التمعّن في محتواها، وهذا ما يفسر أيضا انزياحها عن تلقى الرواية

(1) : سعيد عمري (سعيد خرو): الرواية من منظور نظرية التلقي (مع نموذج تحليلي حول رواية أولاد حارتنا لـ نجيب محفوظ)، مشروع البحث النقدي والترجمة، PROTARS 3، مدير المشروع حميد لحمداني، كلية الآداب، ط1، ظهر المهباز، فاس، 2009، ص59.

(2) : المرجع نفسه، ص59.

على أساس أنها عمل إبداعي.

إنّ أوّل ملاحظة يمكن أن ننتبه إليها ونحن نتناول هذه القراءة، هي أنها قراءة في جمالية الرواية، ذلك أنها قراءة في الأساس تأخذ رواية "ميرسو...، تحقيق مضاد" كنص أدبي له ميزاته التي يتفرد بها عن بقية النصوص، دون أن ينفي ذلك وجود أوجه تشابه بين النصوص الأدبية وغيرها من النصوص.

سعت هذه القراءة من جهة . إلى الوصول إلى علاقة رواية كمال داود "ميرسو...، تحقيق مضاد" برواية "الغريب" لألبير كامو، ومن جهة أخرى سعت إلى البحث عن مكانة الكاتب (كمال داود) في روايته، أي ما مدى انسجام أفكاره مع أفكار وآراء وأيديولوجية البطل هارون.

. العلاقة التناسية بين رواية "ميرسو...، تحقيق مضاد" ورواية "الغريب":

ترى هذه القراءة أن رواية "ميرسو...، تحقيق مضاد" لكمال داود، ما كانت لتكون لو لا رواية "الغريب" لألبير كامو، بحيث تعد رواية داود استمرارا لرواية كامو، فهي تستمد منها الشخصيات والأحداث، وتنطلق منها لتبني عالما روائيا آخر.

وتعزي هذه الدراسة العلاقة بين الروائتين، إلى كون كمال داود كقارئ لرواية "الغريب"، وجد نفسه أمام فراغات وخلايا مهمة خلال قراءته لرواية كامو، فحفزته لكتابة روايته "ميرسو...، تحقيق مضاد"، وفي هذه النقطة تقول صاحبة هذه القراءة، "لو أنّ القارئ كمال داود حصل على الإشباع في رواية ألبير كامو، لما بحث عنه في ذاته أو في ذهنه، بمعنى آخر، إنّ ما قام به كمال داود هو ملء البياضات التي خلفها النص الروائي لألبير كامو، باعتبار أن النص الروائي يحرر ثغرة أو ثغورا، يكون القارئ مقادا إلى ملئها"⁽¹⁾.

إن البياضات التي وردت في رواية "الغريب" لكامي، هي التي دفعت داود بوصفه قارئاً لكامو، لكتابة روايته "ميرسو...، تحقيق مضاد"، بحيث جاءت روايته لتسدّ الثغرات، التي أثارت داود ودفعتة إلى التفاعل بهذا الشكل.

(1) : سامية داودي: كمال داود قارئاً لألبير كامو. من أعمال ملتقى قراءة المبدعين، مارس 2017، صفاقس، تونس، (لم ينشر)، ص06.

في هذا المقام نتساءل، هل أصبحنا أمام طريقة جديدة لملى الفراغات أو البياضات الواردة في النصوص الأدبية؟

إن مصطلح البياضات التي قال به وولفغانغ أيزر، جعلها من أبرز السمات التي تميّز الأدب المعاصر، وذلك لأن القارئ يجد نفسه مجبراً على ملئ البياضات الموجودة في النص، حتى يصل إلى استكمال النص، حيث يكون لمشاركة القارئ دوراً أساسياً في تحقيق النص، فتكون بذلك الفراغات هي التي تسمح بظهور قضية تعدد التأويلات.

لكن الجديد في هذا المقام، هو أنه وجدنا أنفسنا أمام قارئ ذهب لاستكمال بياضات نص روائي "الغريب"، فأنتج لنا أدبا، تمثل في رواية "ميرسو..." تحقيق مضاد، وهذا ما يميّز قراءة كمال داود على بقية القراءات السابقة التي تناولت رواية "الغريب"، والتي أنتجت قراءات نقدية.

إنّ أبرز بياض ورد في رواية "الغريب"، وكان الحافز الأساس لداود لكتابة رواية، ساعيا بها إلى ملئ هذا البياض، يتجلى في الغموض والتجاهل الذي اكتنف شخصية العربي المقتول في رواية كامو، بحيث جعلها كامو شخصية بدون اسم، وهي الشخصية نفسها التي أطلق عليها داود اسم "موسى".

استدلت الباحثة في حديثها عن الدافع الذي دفع داود إلى كتابة روايته، بتصريح لداود، "يؤكد فيه أن شخصية العربي وردت في رواية كامو خمسة وعشرين مرة دون أي اسم"⁽¹⁾، فكان هذا الإهمال الذي لاقته شخصية العربي من قبل كامو، بحيث جعلها دون اسم، المحرك الأساس الذي دفع داود كقارئ إلى استكمال هذا البياض من أجل تحقيق نص كامل.

تقول الباحثة في هذا الصدد، إنّ "المعطيات المقدمة عن شخصية العربي ضئيلة جداً، لدرجة أنّ الروائي قد خيّب أفق انتظار محبيه من القراء العرب عامة والجزائريين خاصة، فعكف كمال داود باعتباره، هو كذلك قارئاً ومبدعاً، على إعادة بناء هذه الشخصية، من خلال طرح السؤال، من يكون هذا العربي المغيب عند كامو؟"⁽²⁾.

(1) : ينظر، المرجع نفسه، ص 04.

(2) : المرجع نفسه، ص 04 ص 05.

فالإجحاف في حق شخصية العربي والإهمال الذي طالها من قبل كامو، كان له الأثر الكبير على كمال داود، حيث "خلخلت البيئة الذهنية لهذا الملتقى وجعلته يخرج في النهاية بعمل تخيلي فريد هو خلاصة تجربته القرائية إن صحّ التعبير"⁽¹⁾، فبناء على كلمة واحدة (العربي) وردت في نص كامو، تعيّن على داود بوصفه قارئاً، أن يشيّد صورة ذهنية عن هذه الشخصية التي لم تلقِ الاهتمام المتوقع من القارئ، وعلى هذا راح داود ينسج روايته انطلاقاً من هذا البياض الذي ورد في رواية "الغريب"، فالنقص في التحديد الذي طال شخصية العربي هو الدافع لدى داود، إذ "مع ألبير كامو كانت شخصية العربي جزءاً من مشروع سردي، يتحول إلى مشروع تأويلي مع كمال داود"⁽²⁾، ويتجسد عبر عمل روائي.

ما بين كمال داود وهارون:

بالإضافة إلى الإشارة التي حوتها هذه القراءة، بخصوص كون رواية "ميرسو...تحقيق مضاد" هي بمثابة ملئ للبياضات التي تخللت رواية "الغريب" لألبير كامو، حيث أتت رواية داود كردة فعل من قارئ تفاعل مع رواية "الغريب"، وكان الناتج أن خلص هذا القارئ إلى كتابة عمل إبداعي.

نجد في هذه القراءة، رؤية إلى مسألة علاقة شخصية "هارون" بالروائي نفسه، حيث ترى الباحثة أن شخصية هارون تمثل بطريقة غير مباشرة مواقف وأيديولوجية كمال داود، وذلك انطلاقاً من كون داود نفسه لا يقيم "حدوداً بين ألبير كامو الروائي وبين ميرسو الشخصية الروائية"⁽³⁾، ومن هذه الانطلاقة التي عبّر عنها داود، رأت هذه القراءة أن داود دخل في علاقة تناسية مع رواية الغريب، فأراد هو الآخر أن يزيل الحدود الفاصلة بينه وبين شخصية البطل (هارون) في روايته.

استدلت الباحثة على موقفها، بالقول أننا عندما نقرأ رواية داود، نجد أنفسنا أمام شخصية البطل تمثل قارئاً لرواية كامو، "ينتقد ويحلل ويبحث ويتأثر...، ينتابنا إحساس أن هذا القارئ أطلع على هذه الرواية وعاش معها وجاء إلينا لشاركنا تجربته

(1) : المرجع نفسه، ص 05.

(2) : المرجع نفسه، ص 12.

(3) : المرجع نفسه، ص 03.

القراءة⁽¹⁾، وفي هذا الموقف نقف لتساءل، هل يكفي أن نرى أن داود صوّر شخصية هارون قارئة لرواية "الغريب"، لنحكم عليها بالقول أنها تمثل الروائي؟

تستمر الباحثة في هذا المسار، حيث تؤكد مرة أخرى أنّ شخصية هارون، التي اتخذها داود شخصية رئيسية لعمله الروائي، والتي نجدها قد عاشت ما قبل وما بعد الاستقلال، وهي مفقودة الإحساس بحنين الأم، نظرا لكون موسى (عربي كامو) هي السبب، حيث أراد داود أن يستمر في إقامة علاقة تناسية مع رواية كامو بالإضافة إلى ملئ فراغاتها، وفي هذا الصدد تقول، "تتوافق أقوال هارون مع أقوال كمال داود، فتختفي الحدود بين التخيلي والسير ذاتي، ولم نعد نميّز بين الراوي والكاتب. ويحق لنا كقراء أن نوظف اسم كمال هارون ونحاكي في ذلك فعل هارون حين أطلق اسم أليير ميرسو على كتاب الغريب معبرا بذلك عن تلاشي الفواصل بين الراوي والكاتب"⁽²⁾، إن هذه القراءة، تعتبر موقف شخصية البطل هارون من العلاقة بين أليير كامو وبطل روايته ميرسو، على أن كامو هو نفسه ميرسو، هو ما دفع داود إلى نسج روايته على المنوال نفسه، بحيث يمكن للقارئ انطلاقا من موقف هارون هذا، أن يوظف اسم كمال هارون، باعتبار أن الحدود بين التخيلي والسير ذاتي كسرت في رواية "الغريب" عبر شخصية بطلها ميرسو، كما كسرت في رواية "ميرسو..." تحقيق مضاف عبر بطلها هارون.

لكن، في هذا الموقف أيضا نتساءل مرة أخرى، هل يكفي أن تقرّ شخصية روائية على أن الحدود بين التخيلي والسير ذاتي كسرت في رواية سابقة، لتجعلنا نقرّ نحن كقراء أن الحدود بين السير ذاتي قد كسر في الرواية الثانية (رواية داود)، أي ما بين كمال داود وبطله هارون؟

سؤال ربما يدعونا إلى الإبحار في قضية عميقة وشائكة في الوقت نفسه، لا زال يختلف فيها النقاد، وتتمثل في تداخل السير ذاتي بالتخيلي في الأدب.

حاولت هذه القراءة الأخيرة، الوصول إلى العلاقة التناسية بين رواية داود وكامو،

(1) : المرجع نفسه، ص 07.

(2) : المرجع نفسه، ص 12 ص 13.

باعتبار الغموض الذي حام حول شخصية العربي أن في رواية "الغريب" كانت المنطلق الرئيس الذي حفّز داود على كتابة روايته، ولذلك كانت ضرورة تداخل ما بين الروایتين، لذلك كانت قراءة في جمالية الرواية، أضف إلى ذلك أنها حاولت البرهنة على أن رواية داود قد تمّعي فيها الحدود بين السير ذاتي والتخييلي عبر شخصية البطل هارون، فتكون بذلك هذه القراءة قد طرحت سؤالاً يبحث في تناسية الرواية، وأجاب النص عليه، انطلاقاً من عناصر بنيته.

3. خاتمة:

أخيراً يمكن أن نجمل القول، من خلال ما سبق، بعرض النتائج التالية التي توصلنا إليها:

. تعتبر جمالية التلقي الألمانية، أول نظرية نقدية اهتمت بالقارئ كعنصر فعّال في العملية النقدية، متجاوزة بذلك التوجهات النقدية التي اهتمت بالمؤلف وكذلك تلك التي اهتمت بالنص.

. كان قارئ يافوس قارئاً تاريخياً، في حين كان قارئ أيزر ضمنياً .

. يسمح استثمار تقنية السؤال والجواب أن تكشف العلاقة الحوارية التي تنشأ بين القارئ والنص.

. يبنى أفق الانتظار عند كل قارئ على أساس الخلفية التي كونها.

. وتختلف كل قراءة على أخرى على هذا الأساس.

. النظر إلى الأدب على أنه وثيقة أيديولوجية أو دينية، يجر صاحبه إلى تبني مواقف،

تبعده عن اعتبار الأدب رسالة جمالية، أول عناصرها الخيال.

أخيراً، وبعد استعراض هذه القراءات، سنختم هذه الدراسة بسؤال، نترك به البحث مفتوحاً، ينتظر باحثاً آخر ليحيب عليه، هل النظرة إلى الأدب على أنه رسالة جمالية مقتصرة على الأكاديمي المتخصص فقط؟